

رحلة البحث

عن سبعين بدرية

بقلم

سلطان بن مبارك بن حمد الشيباني

رحلة البحث عن سبعين بدرية
بقلم: سلطان بن مبارك بن حمد الشيباني

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٤٥هـ / ٢٠٢٤م

الوقف المبارك

منشورات الوقف المبارك
الإصدار الأول

الموزعون:

مركز ذاكرة عمان - مسقط / سلطنة عمان

هاتف: ٩٢٢١١٠١١

مكتبة خزائن الآثار - بركا / سلطنة عمان

هاتف ٩٥٥١٠٠٢٥

مكتبة بهلا - بهلا / سلطنة عمان

هاتف ٩٤٨٠٠٥٦٩

رحلة البحث

عن سبعين بدريا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين وتابعيهم إلى يوم الدين. أما بعد؛ فقد صَرَبَ أعلامُ المسلمين الأوائل مثلاً حميداً في تجشُّم المشقات، وتذليل الصعاب، وركوب الأهوال، ومفارقة الأوطان والأحباب، وتحمل وعشاء السفر.

أخذين بتوجيه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف الذي رواه الإمام الربيع بن حبيب قال: حَدَّثَنِي أَبُو عُبَيْدَةَ عَنْ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَكُونُوا بِالصَّيْنِ». وَذَكَرُ الصَّيْنِ هُنَا مَبَالِغَةٌ فِي الْبُعْدِ، قَالَ الْإِمَامُ السَّالِمِيُّ (المتوفى ١٣٣٢هـ): «ولعلها أقصى بلادٍ كانت العرب تسمع بها»^(١).

آمِلِينَ الدُّخُولَ فِي الْبَشَارَةِ الَّتِي وَعَدَهُمُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَا فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ الرَّبِيعُ أَيْضًا عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ عَنْ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ».

^(١) الجزء الأول من حاشية الجامع الصحيح؛ للإمام نور الدين السالمي (ط ١: ١٣٢٦ هـ. مطبعة الأزهار

قال الإمام السالمي في شرحه: «أي: مَنْ دَخَلَ طريقًا وتلبَّس بها ليتوصل بذلك إلى تحصيل عِلْمٍ. والمراد بالطريق: الحِسِّي؛ كالطريق الموصلة للمسجد الذي فيه العِلْمُ أو لبلدةٍ أخرى فيها العلم، وفي حُكْمِهَا: الطريق المعنوية؛ كالجلوس للتدريس أو التأليف، وكالاشتغال بالصنعة الموصلة إلى ذلك. وفضلُ الله أعمُّ»^(٢).

وغيرُ خافٍ أن مفتاح العلوم مجالسة الشيوخ، فلا غنى عن أستاذٍ تُضْرَبُ إليه أكبادُ الإبل، ولذا قال القائل:

ولا بُدَّ من شيخٍ يُرِيكَ شُخُوصَهُ وإلا فَنَصُفُ العِلْمَ عِنْدَكَ ضَائِعٌ^(٣)

وقد أَسَفَ بعضُ الأئمةِ لَمَّا دُونَ العلم، لأنه وسيلةٌ إلى إضعاف تلقّيه عن الشيوخ، فقد رُوِيَ عن أبي عمرو الأوزاعي (المتوفى ١٥٧هـ) قوله: «ما زال هذا العِلْمُ عزيزًا يتلقّاه الرجال، حتى وقع في الصُّحفِ فَحَمَلَهُ - أو دخل فيه - غيرُ أهله»^(٤).

^(٢) الجزء الثالث من شرح الجامع الصحيح؛ للإمام السالمي (ط: ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م. المطبعة العمومية - دمشق / سورية). ص ٦٢٧.

^(٣) لا أعرف نسبة البيت لِمَنْ. وسمعتُ شيخنا العلامة أحمد بن حمد الخليلي - حفظه الله - يقول إنه سمع شيخه العلامة أبا إسحاق أطفَيْش (ت ١٣٨٥هـ) يستشهد به، ويُعَقِّب عليه بقوله: «وأنا أقول: بَلْ كُلُّ العلم عندك ضائع، وليس نصفه فقط».

^(٤) استفدتُ هذا الأثر من كتاب: معالم إرشادية لصناعة طالب العلم؛ لمحمد عوّامة (ط: ١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م. دار المنهاج - بيروت / لبنان) ص ١٦٤. وتخرجه من: المسند الجامع للدارمي (تحقيق: نبيل بن هاشم آل باعلوي. ط: ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م. دار البشائر الإسلامية - بيروت / لبنان) ص ١٨٥.

على أن مجالسة الشيوخ ليست مقصورة الفائدة على تلقّي العلم، فمِمَّا لا ينبغي إغفاله في هذا المقام أن القُدوة الحسنة والسيرة العطرة للرعيّل الأول من الصحابة والتابعين تُعدُّ عاملاً أساسياً في صياغة الفكر الخُلقيّ، إذ شكَّلت مَوَاقِفَ حَيَاتِهِمْ مِنْهَا دَقَاقًا لِمَنْ أَتَى بَعْدَهُمْ.

وللإمام أبي الشعثاء جابر بن زيد الأزدي (المتوفى سنة ٩٣هـ) قصبُ السبق في تجسيد هذا المبدأ في واقع الحياة، فقد أفنى عمره المبارك متنقلاً بين البلدان، باحثاً عن بقية مَنْ أَدْرَكَهُ مِنَ الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ مِنَ الصَّحَابَةِ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. وَلَا غَرَوْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ نَجْدَ الْإِمَامِ أَبِي عُبَيْدَةَ - تَلْمِيزِ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ - يَقُولُ: «كُلُّ صَاحِبِ حَدِيثٍ لَيْسَ لَهُ إِمَامٌ فِي الْفِقْهِ فَهُوَ ضَالٌّ، فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنَّ عَلَيْنَا بِجَابِرِ بْنِ زَيْدٍ لَضَلَلْنَا»^(٥).

فَلِئَلْتَلَقِيَ الْمُبَاشِرَ عَنِ الشُّيُوخِ أَثْرٌ عَظِيمٌ فِي التَّكْوِينِ التَّرْبَوِيِّ لِلْمَتَلَقِّيِّ. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ نَرَى جِرْصَ الْأَقْدَمِينَ عَلَيْهِ، فِإِقَامَةَ التَّلْمِيزِ مَعَ شَيْخِهِ وَمَلَازِمَتَهُ لَهُ مَدْعَاةٌ لِاسْتِفَادَتِهِ مِنْ شَمَائِلِهِ، وَاسْتِشْعَارِ تَوْقِيرِ الْعُلَمَاءِ وَتَقْدِيرِهِمْ، وَتَقْوِيمِ اعْجَاجِ السُّلُوكِ، وَتَرْوِضِ النَّفْسِ عَلَى الْكَمَالِ الْخُلُقِيِّ،

^(٥) استفتتُ هذا الأثر من أطروحة الدكتور النامي باللغة الإنجليزية (وانظر ترجمة الفصل المتعلق بالإمام جابر في مقدمة كتاب: رسائل الإمام جابر بن زيد الأزدي؛ ضبط نصها: عمرو خليفة النامي. ط ١: ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م. دار الدعوة - نالوت / ليبيا). وتخرّج الأثر من: مسائل أبي عبّيدة مسلم بن أبي كريمة (مخطوطة في حيازة الشيخ يوسف العطاوي - مزاب) ص ٣٧، وشرح أبي طاهر الجيظالي للقصيدة النونية (مخطوطة البارونية - جربة) ج ١ / ص ٤٧.

وتوطيدها على تربية مستدامة، واكتسابها عاداتٍ حميدة^(٦). ولعل من أحسن ما يُضربُ مثلاً هنا عند العُمانيين: أُنْمُوذَجُ العلامة أبي سعيد الكُدَيْي (من أعلام القرن الرابع الهجري) إذ لازَمَ جُمْلَةً من أشياخه وصَحْبَهُمْ زمناً طويلاً كما يورِّخُ ذلك بنفسه، بل حُكي أنه نشأ منذ صغره في بيت شيخه مُحَمَّد بن رَوْح بن عَرَبِي^(٧). وكان لذلك أعمقُ الأثر في تكوينه الخُلُقِي أولاً والعلمي ثانياً.

يُعْطَفُ على ما تقدّم: ما كان يحرص عليه الناس من قديم الزمان من إرسال أبنائهم إلى حلقات العلم، وانقطاعهم فترةً من الزمن عند أشياخهم لاكتساب الخُلُقِ الحسن قبل تحصيل العلم النافع. وهو أمرٌ تتجَلَّى آثاره بوضوح في التلامذة المتخرّجين في مدرسة الإمام نور الدين السالمي؛ الذين كانت ثُلَّةٌ منهم ناشئةً في بيت الإمام السالمي منذ نعومة أظفارهم. ومن أمثلة الطلبة المشار إليهم: أبو الوليد سُعود بن حُمَيْد بن خُلَيْفِين (المتوفى

^(٦) انظر حول هذا الموضوع: كتاب: «من أدبِ المحدثين في التربية والتعليم»؛ تأليف: أحمد محمد نور سيف. ط ٢: ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م. دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث - دبي / الإمارات العربية المتحدة. ومقال: «الأثر التربوي والتعليمي للتلقي المباشر عند المحدثين»؛ بقلم: عبد الرزاق أبو البصل. مجلة أبحاث اليرموك؛ المجلد ١٧ / العدد ٢ / حزيران ٢٠٠١م. منشورات جامعة اليرموك / الأردن.

^(٧) حول سيرة أبي سعيد الكدمي يُراجع كتاب إتحاف الأعيان؛ تأليف: سيف بن حمد البَطَّاشي؛ ط ٢: ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م. مكتب المستشار الخاص لجلالة السلطان للشؤون الدينية والتاريخية / سلطنة عمان. ٢٨٥ / ١.

سنة ١٣٧٣هـ)، قال عنه الشَّيْبَةُ السَّالِمِي: «قرأ على سيدي نور الدين، وأخذ عنه العلوم، فكانت له يدٌ كبرى في فنون العلم، وقد ربَّاه في بيته صغيراً، فنشأ وهو بمنزلة أحد أبنائه، لا يفرق في شيء. فكان يقرأ عليه ويقرأ له في أكثر الأوقات، وكتب عنه تساويدَ جَمَّةً من مؤلفاته»^(٨).

وهنا تجدُّر الإشارة إلى مبادرة الشيوخ في كثير من الأحيان إلى جذب التلامذة إليهم وتنشئتهم وتقويمهم، وهو أمرٌ لم يكن يمتنعون منه أو يروونه عبئاً عليهم، بل كانوا يتعهدون طلابهم بالنصح والرعاية حتى يشبوا ويستووا على سؤقيهم. وأراني أستحضرُ شاهداً بيننا على ذلك ما قام به الشيخ المربِّي سعيد بن أحمد الكندي (المتوفى سنة ١٢٠٦هـ) من دورٍ في توجيه تلميذه العلامة أبي نيهان جاعد بن حميس الحُرُوصِي (المتوفى سنة ١٢٣٧هـ) ونُصِّحِهِ وإرشاده مذ كان في زمن التحصيل^(٩).

ولأجل هذه المنفعة العظيمة المتحصلة من ملازمة العلماء ومجالسة الشيوخ سعى الساعون وشمر المُجِدُّون إلى انتهاز الفرص قبل فواتها، واغتنام الساعات قبل انقضائها، ففي الحديث الصحيح الذي رواه الإمام الربيع بن حبيب في مسنده عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعلَّمُوا العِلْمَ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ، وَرَفَعُهُ ذَهَابُ أَهْلِهِ».

^(٨) نهضة الأعيان. تأليف: الشيبه محمد بن عبد الله السالمي (د.ت. د. معلومات النشر). ص ٤٢٧.

^(٩) سيأتي تفصيل ذلك في الكتاب إن شاء الله.

وموتُ أهل العلم ثُلْمَةً في الإسلام لا تُسَدُّ. وَرَدَ في كتاب آثار الربيع بن حبيب بالرواية عن «أبي بكر بن نعامة قال: كنتُ مع أنس بن مالك - وأنس يومئذٍ مريضٌ - فأتى أنسًا مولى له، فأكبَّ عليه، فقال: توفي جابر بن زيد. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم إنا لله وإنا إليه راجعون، توفي أبو الشعثاء؟ قال له مولاؤه: نعم - والله - اليوم. فقال: مات أعلمُ الناس بالله. يَرْحَمُ اللهُ جابِرَ بن زيد»^(١٠).

وإلى الشيخ الجليل أبي عبد الله محمد بن بكر الفُرْسُطَائِي التَّفُوسِي يُنسَبُ تأسيسُ نظام العَرَابَةِ عند إباضية المغرب سنة ٤٠٨هـ^(١١)، وهو العَلَمُ الذي وَصَفَهُ الدَّرَجِينِي في طبقاته بقوله: «الطَّوْدُ الذي تضاءلت دُونُهُ الأطواد، والبحرُ الذي لا تُقَاسُ به الثَّمَاد، بيتُ أهل المذهب والمشهور بالبركات، والمُعْتَمَدُ عليه فيما هو أَصْلٌ للحركات والسكنات، أسَّس قواعد السيرة، وله في كل فنٍّ تَأْلِيفٌ كثيرة، وأكثرها الحجج والبرهان، لأنه كان فيها رُكْنَ الأركان، وحَفِظَ عنه في الأخلاق؛ حِكْمٌ قد حُلِّدَتْ في بطون الأوراق»^(١٢).

^(١٠) آثار الربيع بن حبيب؛ تحقيق ودراسة: كهلان بن نبهان الخروصي (ط ١: ١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م. فيسبادن/ ألمانيا) ص ٦٨.

^(١١) حول نظام العَرَابَةِ انظر: نظام العَرَابَةِ عند الإباضية الوهبية في جربة؛ تأليف: فرحات الجعبري. ط ١: ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م. المعهد القومي للآثار والفنون/ تونس.

^(١٢) طبقات المشايخ بالمغرب (تحقيق: إبراهيم محمد طَلَّاي. ط ٢: د.ت. د. بيانات النشر) ٢ / ١٩٧. والثَّادُ: الحُقْرُ يَكُونُ فِيهَا المَاءُ القَلِيلُ.

ويكفيه أن ينتفع الناس ببركة هذا النظام فوق الألف سنة، وأن يترسما خطاه، ويقتفوا سيرته، وقد اجتمع له من الطلاب عددٌ كثير، فكانوا «كأنهم جيشٌ صغيرٌ من الشباب، يكثرُونَ أحياناً وَيَقْلُونَ أحياناً، ومتوسطهم - حسب ما يُفهم من مصادر التاريخ - ما بين المئة والثلاثمئة»^(١٣).

ولَمَّا توفي سنة ٤٤٠هـ كَتَبَ مُعَلِّمُ أولاده إلى الشيوخ يُعزِّبهم فيه:

يا أيها الراكب المُزجِي مَطِيَّتَهُ
 إِنْ كُنْتُ نَحْوَ بِلَادِ الزَّابِ تَبْتَكِرُ
 بَلَّغْ هُدَيْتَ ذَوِي الإِسْلَامِ مَأْلَكَةَ
 تَكَادُ تَنْقُدُ مِنْ آلِمِهَا الْحَجْرُ
 أَوْدَى ابْنُ بَكْرٍ وَأُودَتْ كُلُّ مَكْرَمَةٍ

فالعلمُ والوعظ والإسلام قد قُبِرُوا!^(١٤)

وكان أبو الخطاب عبد السلام بن منصور من خواص تلامذته، غير أنه لم يَبْلُ ريقه منه، فعزم على الرجوع إليه سنة ٤٤٠هـ بعدما انقطع عنه زمناً، فوجده في النَّزْعِ، فكان يقول عند ذلك: «إنما مثلي كمثلي رجلٍ سافر في

^(١٣) من تعليقات الشيخ علي يحيى معمر على كتاب النكاح (سيأتي توثيقه) ص ٢٢٢.

^(١٤) الأبيات في كتاب السُّؤالات لأبي عمرو عثمان بن خليفة السُّوني (تحقيق: خضير بن عيسى بن سليمان. ط ١: ١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م. منار الإيمان / الجزائر) ج ٣ / ص ٢١٣. والمألكة: الرسالة.

يوم ذي حر شديد، فَرُفِعَتْ له شجرة، فتوجَّه نحوها ليستظل تحتها، فلَمَّا أتاها انقلعت وزالت!»^(١٥).

ومن قول الشيخ عمر بن مسعود بن ساعد المنذري السُّلَيْفِي (المتوفى سنة ١١٦٠هـ) في رثاء شيخه سليمان بن محمد بن ربيعة المَرْبُوعِي الصَّنْكَي^(١٦):

أنا ما ظننتُ وما رجوتُ بأنه قبلي يُورَى في اللحود ويُضجَعُ
أمنيَّتِي كانت بأن مَنِيَّتِي لي قبله كأس المنون تُجَرَّعُ
إني لأبكيه الزمانَ بأدمع مني لها في كل عِرْقٍ مَدْمَعُ

وكان العلامة سعيد بن بشير الصُّبْحِي (المتوفى سنة ١١٥٠هـ) عندما تترادف عليه السؤالات يتمثل قول الشاعر:

مَضَى مَنْ كَانَ أَهْلًا لِلْفَتَاوَى عَظِيمَ الصَّادِ مَشْحُودَ الحُسَامِ^(١٧)

^(١٥) سِير الوُسَيْانِي؛ لأبي الربيع سليمان بن عبد السلام بن حَسَّان الوُسَيْانِي (ق ٦هـ). تحقيق: عمر بن

لقمان. ط ١: ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م. وزارة التراث والثقافة / سلطنة عمان. ٧٩٤ / ٢.

^(١٦) من أوراق مخطوطة عندي.

^(١٧) الجامع الكبير من جوابات العلامة سعيد بن بشير (ط ١: ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م. وزارة التراث القومي

والثقافة / سلطنة عمان) ج ١ / ص ٢٨. وأصل الشُّعْر من قصيدة للشيخ محمد بن علي ابن عبد الباقي

العماني (من أعلام القرن العاشر الهجري). انظر: إتحاف الأعيان؛ للشيخ سيف بن حمود البطاشي (ط ٢:

١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م) ٢ / ٢٢٠. وأصل الصاد: عِرْقٌ بَيْنَ الأَنْفِ وَالْعَيْنِ. وداءٌ يُصِيبُ الإِبِلَ فِي رُؤُوسِهَا

فيسيل من أنوفها مِثْلُ الزَّبَدِ وَتَسْمُو عند ذلك برؤوسها. ثم استعير في الناس كنايةً عن السُّمُو.

وَكَتَبَ الشَّيْخُ أَبُو إِسْحَاقَ أَطْفَيْشَ (المتوفى ١٣٨٥هـ) من مصر مجيباً بعض سائله من زنجبار: «بَلَّغْ إِلَيَّ سَوَالِكَ مُسْتَفْتِيًّا عَنْ مَسَائِلِ ثَلَاثٍ، وَتَقُولُ إِنَّهُ لَا يَوْجَدُ هُنَاكَ مَنْ يَفْتِيهَا، وَهِيَ حَالٌ مُحْزَنَةٌ مُؤَلَّةٌ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»^(١٨).

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ كَانَ حِرْصُ الْأَسْلَافِ شَدِيدًا عَلَى تَقْيِيدِ كُلِّ شَارِدَةٍ وَوَارِدَةٍ عَنْ أَشْيَاخِهِمْ، حَتَّى لَوْ كَانَتْ أَنْفُسُهُمْ تُكْتَبُ لَكَتَبُوهَا! وَيَعْجَبُنِي فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ أَبِي بَكْرِ بْنِ الْعَلَّافِ (المتوفى ٣١٨هـ) لَمَّا مَاتَ الْمُبَرَّدُ سَنَةَ ٢٨٥هـ^(١٩):

| | |
|--|--|
| وَلَيْلِحَقَنَّ مَعَ الْمُبَرَّدِ ثَعْلَبُ | ذَهَبَ الْمُبَرَّدُ وَانْقَضَتْ أَيَّامُهُ |
| خَرِبًا وَبَاقِي رُبْعِهِ فَسِيخَرِبُ | بَيْتٌ مِنَ الْأَدَابِ أَصْبَحَ نَصْفُهُ |
| لِلدَّهْرِ أَنْفُسَكُمْ عَلَى مَا يَسْلُبُ | فَابْكُوا لَمَّا سَلَبَ الزَّمَانُ وَوَطَّنُوا |
| أَبَدًا، وَمَنْ تَرْجُونَهُ فَمُعَيَّبُ | ذَهَبَ الْمُبَرَّدُ حَيْثُ لَا تَرْجُونَهُ |
| شَرِبَ الْمُبَرَّدُ عَنْ قَلِيلٍ يَشْرَبُ | فَتَزَوَّدُوا مِنْ ثَعْلَبٍ فَبِكَأْسٍ مَا |
| بَسْرِيرِهِ وَعَلَيْهِ جَمْعٌ مُجْلِبُ | وَاسْتَحْلَبُوا أَلْفَاظَهُ فَكَأَنَّكُمْ |
| إِنْ كَانَتْ الْأَنْفَاسُ مِمَّا يُكْتَبُ | وَأَرَى لَكُمْ أَنْ تَكْتَبُوا أَنْفَاسَهُ |
| مِنْ بَعْدِهِ وَلَيَذْهَبَنَّ وَنَذْهَبُ | فَلَيَلْحَقَنَّ بَمَنْ مَضَى مِتْخَلْفُ |

^(١٨) من مخطوطة عندي، والسائل هو القاضي محمد بن سالم بن محمد الرواحي.

^(١٩) الأبيات في معجم الأدباء لياقوت الحموي (تحقيق: إحسان عباس. ط١: ١٩٩٣م. دار الغرب

وَمَنْ حَبَّاهُ اللَّهُ بِشَيْخٍ مُلِيٍّ عِلْمًا مِنْ فَرْقِهِ إِلَى قَدَمَيْهِ ثُمَّ فَرَّطَ فِيهِ؛ كَانَ
كالشاعر عندما وَصَفَ حَالَهُ وَحَالَ الذُّبِّ العَاوِي بِقَوْلِهِ^(٢٠):

وَوَادٍ كَجَوْفِ العَيْرِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ بِهِ الذُّبُّ يَعْوِي كَالخَلِيعِ المَعِيلِ
فَقَلْتُ لَهُ لَمَّا عَوَى: إِنَّ شَأَنَنَا قَلِيلُ الغِنَى إِنْ كُنْتَ لَمَّا تَمَوَّلِ
كِلَانَا إِذَا مَا نَالَ شَيْئًا أَفَاتُهُ وَمَنْ يَحْتَرِثُ حَرِثِي وَحَرِثَكَ يُهْزَلِ
وتأملوا مقولة الإمام أبي الشعثاء المشهورة: «أدرکت سبعین رجلا،
فليس رجلٌ منهم قعدتُ معه إلا كنت أستنظفُ ما وراء ظهره؛ إلا ابن
عباس»^(٢١). وما معنى الاستنظاف إلا الاستيفاء والاستيعاب؟ أخذًا من قول
العرب: استنظف الشيء إذا أخذه كله واستوفاه^(٢٢). وهو الذي عبّر عنه
بالاحتواء في الرواية الأخرى: «لقيت سبعين بدريةً فحويتُ ما بين أظهرهم
إلا البحر»؛ يعني عبد الله بن عباس^(٢٣).

^(٢٠) وَرَدَتْ هَذِهِ الأبيات ضمن معلقة امرئ القيس، وَنَبَّهَ عددٌ من شُرَاحِ المعلقات على الشك في نسبتها
إليه. انظر: شرح القصائد السبع؛ لأبي عبد الله الحسين بن أحمد الزُّوزَنِي (ت ٤٨٦هـ). تحقيق: بلال

الخليلي وأحمد عبد الحميد. ط ٢: ١٤٤١هـ / ٢٠١٩م. درة الغواص - القاهرة/ مصر. ص ١٤٣.

^(٢١) بيان الشرع؛ تأليف: محمد بن إبراهيم الكندي (ت ٥٠٨هـ). ط ١: ٧١ جزءا بين سنتي ١٤٠٢ -

١٤١٤هـ / ١٩٨٢ - ١٩٩٣م. وزارة التراث القومي والثقافة/ سلطنة عمان. ج ٨/ ص ١٦٧.

^(٢٢) انظر: لسان العرب؛ تأليف: محمد بن مكرم بن علي؛ ابن منظور الإفريقي (ت ٧١١هـ). (د.ت. دار

المعارف - القاهرة/ مصر) مادة: نظف. ج ٦/ ص ٤٤٦٨.

^(٢٣) الضياء للعوتبي (الطبعة الأولى) ج ٣/ ص ١٥٠، ٢١١ (ط ٢: ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م. وزارة الأوقاف

والشؤون الدينية/ سلطنة عمان) ج ٣/ ص ٣٣٧.

وقد ذكروا أن ضمام بن السائب كثرت عليه وفودُ الناس أيام الحج يستفتونه، وكان جوابه: سألتُ جابرًا... وسئِلَ جابرٌ... وسمعتُ جابرًا... وقال جابرٌ... حتى سُئِيَ «رَاوِيَةَ جَابِرٍ» مِنْ كَثْرٍ مَا يَحْفَظُهُ مِنْ آرَائِهِ وَأَقْوَالِهِ^(٢٤). قال أبو سفيان محبوب بن الرحيل: «وكان ضمام قد حفظ عن جابر ما لم يحفظه عنه أبو عبيدة ولا أبو نوح ولا أحدٌ من تلاميذه»^(٢٥).

وَشَبِيهُهُ فِي الْمَغْرِبِ: أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زُورِسْتَنِ الْكُنُومِيِّ الْوَسِيَّانِي (من علماء القرن الرابع الهجري) لَازَمَ الشَّيْخَ أَبَا نُوحٍ سَعِيدَ بْنَ زَنْغِيلٍ مَلَازِمَةً الظِّلِّ لَفَيْئِهِ، وَصَحْبَهُ فِي أَسْفَارِهِ كُلِّهَا، حَتَّى صَارَ يُعْرَفُ بِفَتْى أَبِي نُوحٍ. وَشَهِدَ لَهُ شَيْخُهُ أَبُو نُوحٍ بِحِفْظِهِ وَضَبْطِهِ، فَكَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ قَالَ: اسْأَلُوا هَذَا الْفَتَى^(٢٦).

وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ الْمَخْطُوطَاتِ الْعَتِيقَةِ^(٢٧) مَسَائِلَ سَأَلَهَا مُعِينُ بْنُ مُعِينٍ (من أعلام عمان في القرن الرابع الهجري) لِأَبِي الْحَسَنِ الْبِسْيَوِيِّ فِي مَرَضٍ مَوْتِهِ. وَرَدَ فِي افْتِتَاحِهَا: «قَالَ مُعِينُ بْنُ مُعِينٍ: سَأَلْتُ الشَّيْخَ أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ ثُمَّ قَرَأْتُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّقْعَةِ

^(٢٤) انظر: الضياء للعوتبي (الطبعة الأولى) ج ٦ / ص ٦١. والسير للبدر الشماخي (ط ١: ٢٠٠٩ م. دار المدار الإسلامي - بيروت / لبنان) ١ / ٢٠٠.

^(٢٥) طبقات المشايخ بالمغرب ٢ / ١٦.

^(٢٦) السؤالات للسوفي ج ١ / ص ٨١٠.

^(٢٧) مجموع في السير والجوابات؛ منسوخ سنة ٥٣١ هـ (رقم ١٦٩٧، بدار المخطوطات في وزارة التراث والثقافة بسلطنة عمان). ص ١٠٢ - ١٠٥.

التي قَيَّدَتْ فيها عنه هذه المسائل وهو قاعد...». وهي من نواذر التصانيف،
ومن دلائل حرص الأسلاف على تقييد العلم وإفادته.

ولا تفوت الإشارة هنا إلى أن الشيخ أبا زكريا يحيى بن الخير الجنائوني
(من أعلام القرن الخامس الهجري) كان مِنْ أُنَجَبِ طُلَّابِ شَيْخِهِ أَبِي
الرَّبِيعِ سَلِيمَانَ بْنِ هَارُونَ الْمَلُوشَائِيِّ النَّفُوسِيِّ، وَمِنْ أَكْثَرِهِمْ حَفْظًا لِأَقْوَالِهِ
وَأَثَارِهِ، وَقَدْ رَوَى عَنْهُ كِتَابَهُ فِي (النِّكَاحِ) بِأَكْمَلِهِ إِلَّا شَيْئًا يَسِيرًا مِنْ آرَاءِ
غَيْرِهِ.

قال في خاتمته: «وإنما كتبناه رغبةً فيما يُتَحَفَّظُ مِنْ آثَارِ مَنْ أَدْرَكْنَاهُ،
وَمَا أَرَدْنَاهُ تَكَلُّفًا، وَقَصَدْنَا فِيهِ إِلَى الْحَاجَةِ مِمَّا يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى اسْتِعْمَالِهِ،
مِمَّا أَفْتَاهُ الشَّيْخُ أَبُو الرَّبِيعِ سَلِيمَانَ بْنِ هَارُونَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَدَسَ رُوحُهُ
وَأَكْرَمَ مَثْوَاهُ، إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُ، فَرَبِمَا أَسْنَدْنَاهُ إِلَى غَيْرِهِ وَرَبِمَا لَمْ نُسْنِدْهُ، مِنْ
رِوَايَةِ مُسْتَطْرَفَةٍ وَقَوْلِ مُسْتَطْرَفٍ عَنْ غَيْرِهِ، وَأَمَّا الْجُلُّ فَهُوَ مِنْهُ أَيْدِي اللَّهِ
بِكِرَامَتِهِ»^(٢٨). قال البدر الشماخي: «وكفاك حفظًا وقوةً ثُبُوتٍ أَنْ صَنَّفَ
كِتَابًا مِمَّا حَفِظَ وَسَمِعَ مِنْ شَيْخِهِ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا سَمِعَ مِنْ غَيْرِهِ»^(٢٩).

^(٢٨) كتاب النكاح، تأليف: أبي زكريا يحيى بن الخير بن أبي الخير الجنائوني (ق ٥هـ). أعداه للنشر: سليمان
أحمد عون الله، ومحمد ساسي زغدود. كتب مقدمة الناشرين وعلق على الكتاب: علي يحيى معمر. دون
بيانات النشر. ص ٣٢٦.

^(٢٩) السير للشماخي ٢ / ٧٦١.

ولا يُستبعد في «كتاب الصوم» أيضًا أن يكون أكثر ما فيه عن هذا الشيخ، وإن لم يصرح بذلك، ومثله «كتاب الأحكام» بقرينة تكرار عبارة «قال الشيخ» فيهما^(٣٠).

وبلَّغَتْ نظرةُ الأولين إلى تلقي العلم عن الأئمة أن جعلوه كالنَّسَب لهم، يحرصون على تقوية أواصره، وتوثيق عراه، فالشيوخ بمنزلة الآباء، ومَنْ لا شيوخ له لا نَسَبَ له. ومِنْ هنا جاءت تسمية (نَسَب الدِّين) عند أعلام الإباضية، يَعْنُونَ به: بيانَ أسماء العلماء الثقات الذين أخذوا عنهم دينهم واحدًا عن واحد، أو طبقةً عن طبقة، من زمانهم إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم. واقترانُ (النسب) بـ (الدين) استعمالٌ مجازي، مأخوذٌ من المعنى الحقيقي الدال على النسبة للآباء، مِنْ بابِ جَعَلَ الدِّينَ أصلًا يلتقون فيه، كما يلتقون في آبائهم وأجدادهم.

ولِنِسْبَةِ الدينِ بَعْدَ حضاري عميق عند الإباضية، يبرهنون من خلاله على أصالة مذهبهم، وشدة تمسكهم بالآثار، وعنايتهم بالإسناد العالي، وحفاظهم على سلسلة قوية متصلة الحلقات، تربط المتأخر بالمتقدم. وهم يؤكدون على أنهم - بهذه السلسلة - يحرصون على نقل (الدين الصحيح) المعتمد على القرآن والسنة والأصول الثابتة، أما الرجال المذكورون في

^(٣٠) وقد وَرَدَتْ كثيرًا فيهما. قال المحشي ابن أبي سِتَّة: «اعلم أنه متى قال المصنف رحمه الله: (قال

الشيخ)؛ فالمراد به شيخه الشيخ أبو الربيع سليمان بن هارون». انظر: كتاب الأحكام (ط ١: ١٤١٩هـ/

النسب فهُم وسيلةٌ لحمل هذا الدين وتبليغه، وليس الغرضُ تقليدهم أو اتباعهم. ولأجل أهمية (نسب الدين) وخطورته جعلوا حلقاته مقصورةً في أئمة العلم العُدول المتصدّرين، فصار مرورُ الإسناد بعالمٍ ما منقبةً من مناقبه، فإذا قالوا: «فلان مِمَّن جازت عليه نسبةُ الدين» كان ذلك بياناً لرفيع قدره ومنزلته العلية.

وللعامة أبي طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي (المتوفى سنة ٧٥٠هـ) قصيدة في نسبة الدين وإسناده^(٣١)، مطلعها:

أَلَا كُلُّ مَنْ لَا يَهْتَدِي بِأَيِّمَةٍ

يَكُنْ مِثْلَ مَاثِي فِي الدُّجَى لَيْسَ يَهْتَدِي

ولا شكَّ أن تغيّر الظروف وتبدّل أحوال العصور كان دافعاً وراء استشعار خيريّة القرون السالفة، وهو ما عمّق في النفوس ورسخ فيها ضرورة تداول أخبار السلف وتقييدها للاتساء بها واقتفاء أثرها. وليس من الإنصاف الانصراف عنها تذرّعاً بكونها ماضياً لا جدوى من التغيّ به، فإنّ في تأبين المفقود رَسَمَ المثل الأعلى للموجود، والعالمُ كتابٌ مفتوح، يتلمّس فيه العاقل حُطى مَنْ سبقه، ليتبيّن مواطن الزلل ومواطن الثبات.

أَلَا فَاقْرَأُوا تَارِيخَ أَسْلَافِكُمْ تَرَوْا

لَهُمْ هِمَمًا مِنْهَا الْأَجَلُ حَقِيرُهَا

^(٣١) مَخْطُوطَةٌ خِزَانَةِ آلِ اشْقَبَقَب (للحاج إبراهيم بن سليمان اشقَبَقَب ت ١٣٤٠هـ ونَجَلِهِ الْحَاجِ صَالِحِ

ت ١٣٩٤هـ) - عَرْدَايَةَ / الْجَزَائِر. رَقْمُهَا فِي الْخِزَانَةِ (ش/ دغ ٤) وَرَقْمُهَا فِي الْفَهْرَسِ (٢٠١).

هُم سَلَفٌ إِنْ كُنْتُمْ خَلَفًا لَهُمْ
 عَلَى حَذْوِهِمْ فَلْيَحْذُ مِنْكُمْ بِصِيرُهَا
 إِذَا لَمْ تَكُنْ نَفْسُ النِّسَبِ كَأَصْلِهِ
 فَمَا ازْدَانِ بِالْأَنْسَابِ إِلَّا حَوْوَرُهَا^(٣٢)
 وَقَدْ أَيْقَنَ أُولُو الْأَلْبَابِ أَنَّ عِزَّةَ الْأُمَّمِ فِي عِلْمِهَا وَمَعَارِفِهَا، وَأَنَّ
 جَوْلَانَ الْأَقْلَامِ أَمْضَى مِنْ صَوْلَانَ الْفِرْسَانَ:
 فَضُمَّرِ الْأَقْلَامِ يَبْلُغُ أَهْلَهَا مَا لَيْسَ يُبْلَغُ بِالْحَيَادِ الضُّمَّرِ^(٣٣)

^(٣٢) من شعر الشيخ محمد بن سالم بن زاهر الرُقَيْشِيِّ (ت ١٣٨٧هـ). انظر: البحر الفياض لسيرة علم من
 أعلام عمان؛ تأليف: سالم بن محمد بن سالم الرقيشي (ت ليلة الاثنين ٤ جمادى الأولى ١٤٣١هـ / ١٩
 إبريل ٢٠١٠م). ط ١: ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م. مطابع النهضة / سلطنة عمان. ص ١٠٢.

^(٣٣) من قصيدة للشيخ سالم بن حمد الحارثي (ت ١٤٢٧هـ)؛ بعثها تحية وسلاما للشيخين النفوسيين
 اللبيين: علي يحيى معمر، وعمرو النامي (مخطوطة عندي) غير مؤرخة، والأرجح أنه قالها سنة
 ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م. وكنت أظنها من مقوله، فإذا هي اقتباس من قصيدة لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ إِدْرِيسَ الْوَزِيرِ
 الْجَزِيرِيِّ - نسبةً إلى الجزيرة الخضراء بالأندلس - (ت ٣٩٤هـ)، قالها في تحريض ابنه على العلم، منها:

وَأَعْلَمُ بِأَنَّ الْعِلْمَ أَرْفَعُ رُتْبَةً وَأَجَلٌ مُكْتَسَبٌ وَأَسْنَى مَفْخَرٍ
 فَاسْأَلُكَ سَبِيلَ الْمُقْتَنِينَ لَهُ تَسُدُّ إِنَّ السِّيَادَةَ تُقْتَنَى بِالذَّفَرِ
 وَالْعَالِمُ الْمَدْعُوُّ حَبْرًا إِنَّمَا سَمَاءَهُ بِاسْمِ الْحَبْرِ حَمَلُ الْمَحْبَرِ
 وَبِضْمَرِ الْأَقْلَامِ يَبْلُغُ أَهْلَهَا مَا لَيْسَ يُبْلَغُ بِالْحَيَادِ الضُّمَّرِ

ذكرها الخطيب البغدادي في (تقييد العلم). تحقيق: يوسف العش. دار إحياء السنة النبوية - بيروت.
 ص ١٣٠. وذكرها قبله صاحب (جدوة المقتبس) الترجمة رقم ٦٢٥ ص ٤٠٥، قال: «وقد كتب عني
 هذه القطعة الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الحافظ، وأخرجها في بعض تصانيفه في

وسالكُ الطريق لالتماس العِلْم لا بُدَّ أن يدرك أن رحلته ذات عقباتٍ، فيحرص على وقته حِرْصَه على أعزِّ عزيزه، ويبذل النفيس من ماله ليكون له زادا مبلِّغًا إلى مراده، ويصبر على ما قد يعتريه من أسقام وأمراض، وما قد يلاقيه من خوف وأذى، ومزعجات ومنغصات، فدركُ المنى مطلبٌ شريفٌ لكل شريفٍ، يستسهل الصعبَ في سبيله:

وَإِذَا شُقُّهُ الْمَسَالِكُ طَالَتْ فَصَرَ الشَّوْقُ لِلْحَبِيبِ مَدَاهَا^(٣٤)

لأجل ذلك جعلتُ محتوى هذا الكتاب يدور حول خمسة فصول: **الفصل الأول:** في الرحلة في طلب العلم ومشقاتها ومعاناتها. **الفصل الثاني:** في قيمة الزمن عند أهل العلم وعنايتهم بأوقاتهم. **الفصل الثالث:** في بذل المال لتحصيل العلم، والصبر على لفحات الفقر ونفحات الغنى. **الفصل الرابع:** في فقد الصحة، والصبر على الأمراض الحادثة والعاهات الدائمة. **الفصل الخامس:** في فقد الأمان، والصبر على أذى أهل الزمان. وذيلُته بخاتمة في جملة من نصائح العلماء وتوجيهاتهم.

وجمعتُ بين الأقوال والأقاصيص والطَّرَف والنوادر، إمعانًا في تأكيد المعنى الذي أقصده، وترويحًا عن القلوب. قال قطبُ الأئمة: «وينبغي للقاصِّ أن لا يُطيل فيملّوا، فتذهب بركةُ العلم... وينبغي لمن يطيل أن يذكر

العلم وفضله». انظر: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس؛ لأبي عبد الله محمد بن فُتُوح الحميدي (ت ٤٨٨هـ). تحقيق: بشار عواد معروف، ومحمد بشار عواد. ط ١: ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م. دار الغرب الإسلامي - تونس.

^(٣٤) من شعر العلامة أبي مسلم البُهْلاني؛ من قصيدته في تقرّظ كتاب (هميان الزاد).

لهم في مجلسه ما يتبسمون به ترويحاً لهم. وقد روي أن الخليل بن أحمد يذكر بعض الأضاحيك تنشيطاً بذلك ويأمر به»^(٣٥).

وتحاشيتُ التكرار قدر الإمكان، إلا حيث تدعو الحاجة، مع أن في كلام السلف ما يَكُونُ إِعَادَةً ذِكْرِهِ كالمِسْكِ «ما كَرَّرْتُهُ يَتَضَوَّعُ»^(٣٦). وحرصتُ على اقتناص شوارد أحاديث العلماء عن العلماء، لأنها شهادة كفاءٍ للنظير، وخبيرٍ بالخبير، و«إنما تَعْرِفُ الفحولَ الفحولُ»^(٣٧).

وما أحرى العزائم الساكنة أن تُستثار بسير الأبرار، وإذا كان في تأبين المفقود رَسْمُ المَثَلِ الأعلى للموجود؛ فأَيُّ رَسْمٍ يبقى في الآخِرِينَ سوى رسم أصحاب الأثر؟:

^(٣٥) تيسير التفسير؛ لقطب الأئمة أحمد بن يوسف أطفيش الجزائري ت ١٣٣٢هـ (ط ١: ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م. وزارة التراث القومي والثقافة / سلطنة عمان) ج ١٢ / ص ٤٨٥. (ط ٢: ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م. تحقيق: إبراهيم بن محمد طلاي، بمساعدة لجنة من الأساتذة. وزارة التراث والثقافة / سلطنة عمان) ج ١٤ / ص ٨٨.

^(٣٦) اقتباس من بيتٍ لمجهول، أورده الزبيدي في تاج العروس (مادة: ضوع). ونُصّه:

أَعَدُّ ذِكْرَ نُعْمَانَ لَنَا؛ إِنَّ ذِكْرَهُ هُوَ الْمِسْكُ مَا كَرَّرْتُهُ يَتَضَوَّعُ

^(٣٧) شطر بيت للشاعر الأديب سليمان بن أحمد المفضلِي النزوي (ت ١٢٢٧هـ)، من لاميته التي رثى فيها ولده. أوردها كاملةً معاصره: حميد بن محمد بن رُزَيْقِ النخلي في الصحيفة العدنانية (السر الأول من كتاب: المؤمن في ذكر مناقب نزار واليمن. ط ١: ١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م. وزارة التراث والثقافة / سلطنة عمان) مج ٢ / ص ٣١٣.

حَيٍّ - وَإِنْ مَاتَ - ذُو عِلْمٍ وَذُو وَرَعٍ

ما مات عبدٌ قَضَى مِنْ ذَاكَ أَوْطَارًا

وَذُو حَيَاةٍ عَلَى جَهْلٍ وَمَنْقَصَةٍ

كَمَيِّتٍ قَدْ تَوَى فِي الرَّمَيْسِ أَعْصَارًا^(٣٨)!

وفي هذا المعنى يقول الشيخ عمرو بن علي المَعْقَدِي (من علماء القرن السادس الهجري) في مقدمة كتابه (الصلاة والصلة): «ثم إني لَمَّا نظرتُ بعين الفكرة وتأملتُ بشواهد العبرة لم أَر شيئًا من متاع الدنيا مما خلفه المخلفون وورثه الوارثون وأثره المؤثرون أفضلَ من اسمٍ يدوم على الأيام، ويبقى على مرور السنين والأعوام؛ مِنْ أثارِ قَلَمٍ أو حياة علم»^(٣٩).

وما أجمل تشنيف الآذان بأخبار الأعيان قبل أن يَعْرِوها النسيان ويتقادم بها الزمان. قال الشيخ فلفول بن يحيى (من أعلام المغاربة في القرن الخامس): «لَمَّا مات أبو عبد الله محمد بن بكر رضي الله عنه قلتُ للمشايع: اقتفوا بنا آثاره ما دامت جديدةً غير مندرسة. فقالوا: مهلاً! فساعفْتُهُم. حتى عَفَا الأثر ودرَسَت السَّير»^(٤٠).

لو صَرَبْتُمْ بِقِدَاحٍ لِلْعُلَى لَمْ يَطِرْ غَيْرَ الْمُعَلَّى لِي قِدْحُ
هَيَّجْتَنِي نَحْوَةً عَنْ سَلَفٍ وَلِمِثْلِي نَحْوَةً فِيهِمْ وَمَدْحُ

^(٣٨) من قصيدة الإمام الرستمي أفلح بن عبد الوهاب؛ سأذكرها برمتها في آخر الكتاب إن شاء الله.

^(٣٩) مخطوط كتاب الصلاة والصلة للمعقدي (خزانة الوقف المبارك؛ رقم ٤٨).

^(٤٠) سير الوسياني ٢ / ٨٩٥. وسير الشاخي ٢ / ٤٢٦.

رسموا خَطًّا بأقلام العلى يُثَبِّتُ الحَقَّ وللباطلِ يَمْحُو
أُيِّدُوا بالرُّعبِ في غاراتهم كُلُّ أيامهم نصرٌ وفتحٌ
ولهم مِنْ قَرِطٍ ما راشوا الورى منهمْ مِلءٌ رياضِ الشكرِ صَدْحُ
ذِكْرُهُم للدهرِ حَلِيٌّ كم به سُنِّفَتْ أذنٌ وكم تُوجَّ صَرْحُ
وَيَحِ نفسى اليومَ هَلًّا أَقْتَفِي رَسَمَ أسلافي ولي في العُمرِ فَسَحُ! (٤١)

وإني لأبتغي رضا الله تعالى من وراء كتابة هذه الأوراق، وهي تذكرة
لنفسى قبل أن تكون تذكرة لغيري، أعود إليها بين الفينة والأخرى
عساها تحرك شيئا من المياه الراكدة، أو تبعث حياةً في الهمة الخاملة، وإنَّ
مما رسخ في الذهن من أقوال المشايخ: «إِنَّ فِي الكِتَابَةِ عَوْنًا عَلَى ارْتِسَامِ مَا
يُدَوِّنُ فِي الحَافِظَةِ، وَثُبُوتِ مَا يُرَسَّمُ فِي الذَّاكِرَةِ» (٤٢)، لذلك أخذت على نفسى
منذ سنين أن أستعين بالكتابة على تقييد الفوائد، فالحِفْظُ حَوْنٌ، والمصائدُ
شَوَارِدُ، وما عَلِقَ فِي الذَّاكِرَةِ اليَوْمَ أتى عليه تعاقبُ الليل والنهار فَصَارَ نَسِيًّا
مَنْسِيًّا.

(٤١) من شعر الشيخ عبد الله بن سعيد بن خلفان الخليلي؛ انظر: الموسوعة الشعرية لأمر البيان الشيخ عبد
الله بن علي الخليلي؛ تحقيق: سعيد بن سالم النعماني. ط ١: ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م. دون ناشر / سلطنة عُمان.
٢٦٩ / ١

(٤٢) هذه العبارة من وصايا الشيخ أبي إسحاق أطفَيْش (المتوفى سنة ١٣٨٥هـ) لتلميذه الشيخ أحمد بن
حمد الخليلي حفظه الله؛ كتبها إليه في رسالة بعثها من مِصر؛ عقب رجوعه إليها بعد زيارته لزنجبار التي
بدأت يوم ٧ صفر ١٣٨٠هـ، وانتهت يوم ١٢ ربيع الآخر ١٣٨٠هـ. والعبارة قيَّدتها عن الشيخ الخليلي
سَمَاعًا منه في ماليزيا صبيحة الأربعاء ٢٥ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ / ١١ أغسطس ٢٠٠٤م.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْزِيَ أَسَاتِدَتَنَا وَأَشْيَاخَنَا عَنَا خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَأَنْ يَبَارِكَ فِي أَعْمَارِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، أَمَا الرَّاحِلُونَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ فَادْعُو لَهُمْ بِهَذَا الدُّعَاءِ الْمُبَارِكِ الْمَأْثُورِ عَنِ الْعَلَامَةِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ مَحْبُوبٍ (المتوفى ٢٦٠هـ) لَمَّا بَلَغَهُ مَصَابِ الْمُسْلِمِينَ فِي بَعْضِ الصَّالِحِينَ: «رَحِمَ اللَّهُ إِخْوَانَنَا وَأَوْلِيَاءَنَا وَأَرْكَانَنَا، وَأَسْعَدَ اللَّهُ جُدُودَهُمْ، وَنَوَّرَ بِنُورِهِ لِحُودَهُمْ، وَلَقَّاهُمْ مِنْهُ التَّحِيَّةَ وَالرِّضَا، وَأَلْحَقَهُمْ بِصَالِحِ مَنْ مَضَى، وَسَدَّ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الدَّوْلَةِ مَا انْتَلَمَ، وَأَيَّدَهَا بِالْعِصْمِ^(٤٣)، وَحَصَّنَهَا بِالنَّعْمِ وَالْحُكْمِ، وَبَنَى مِنْهَا مَا أَنْهَدَمَ... وَأَبْقَى اللَّهُ فِي الدَّوْلَةِ وَأَهْلِهَا مَا أَرْجُو أَنْ يُرْغَمَ اللَّهُ بِهِمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ أَنْوَفَهُمْ، وَيَتَلَمَّ بِهِمْ صَفُوفَهُمْ، وَيُحَقَّقَ عَلَى أَيْدِيهِمْ حُتُوفَهُمْ، وَيُنْبِتَ اللَّهُ مَكَانَ الْقَرَمِ قُرُومًا^(٤٤)، وَمَكَانَ السَّهْمِ سَهُومًا، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْبِرَنَا وَإِيَاكُمْ بِمَا جَبَرَ بِهِ الَّذِينَ رَضِيَ صَبْرَهُمْ وَشَكَرَهُمْ»^(٤٥).

سلطان بن مبارك الشيباني

صبيحة عيد الفطر المبارك ١٤٤٥هـ

^(٤٣) العِصْمَةُ: الْمَنَعَةُ وَالْحَمَى. وَجَمْعُهَا: عِصَمٌ. (لسان العرب؛ مادة: عصم). دعاء لها بتأييدها بما يمنع

العدو عنها ويحميها من قوى بشرية، وحصون ومعقل، وعدة وعتاد.

^(٤٤) الْقَرَمُ: السَّيْدُ. جَمْعُهُ قُرُومٌ (لسان العرب؛ مادة: قرم).

^(٤٥) من المخطوطة العتيقة المنسوخة سنة ٥٣١هـ (المشار إليها آنفا) ص ٢٠٠.